تصدير

بقلم

الأستاذ الدكتور/ يوسف إبراهيم يوسف

مدير المركز

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه .. وبعد

فإن تراثنا الإسلامي ملئ بالمفكرين الذين أثروا الفكر العالمي، في شتىٰ المجالات في الطب والزراعة والبيطرة والرياضيات ممن عاش البشر على جهودهم قروناً متطاولة، ولا يقل عن ذلك في الأهمية والريادة والتأثير ما قدمه قادة الفكر الاقتصادي والفكر الإداري في حضارتنا الزاهرة التي لها صفحات كثيرة في سجل الحضارة الإنسانية.

وممن يشار إليهم بالبنان في هذا المجال أبو جعفر الدمشقي صاحب الإسهام الكبير في هذا الميدان ممثلاً في كتابه: الإشارة إلى محاسن التجارة.

وقد كان أخونا الفاضل الأستاذ الدكتور/ شوقي أحمد دنيا ـ قد جلىٰ إسهام هذا المؤلف في ميداني الاقتصاد والإدارة، إذ نشر مؤلفاً عن هذا الرائد وأثره وإسهامه، قرأه الكثيرون، واستفاد منه الباحثون. ثم نفدت الطبعة من الأسواق وكثر السائلون عن الكتاب. ولما كان مركز صالح كامل معني بنشر الفكر

الاقتصادي من المنظور الإسلامي، فقد بادر إلى توفير هذا الكتاب للسائلين عنه، مستأذناً في ذلك مؤلفه الفاضل، الذي رحب بالفكرة وشجعنا على تنفيذها.

ونتيجة ذلك هي وجود هذه الطبعة بين يدي السائلين عنها الراغبين في الاستفادة منها.

نسأل الله تعالى أن يجزي المؤلف خير الجزاء، وأن يوفقنا دائماً إلى نشر عيون الفكر الاقتصادي الإسلامي وفاء للقارئ وقياماً بالواجب، وأداءً لرسالة المركز في نشر الفكر الاقتصادي من المنظور الإسلامي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مدير المركز

أ.د/ يوسف إبراهيم يوسف

غرة المحرم ١٤٣٦هـ
الموافق ٢٥ من أكتوبر ٢٠١٤م

تقديم:

حفلت الحضارة الإسلامية على تنوع المكان وامتداد الزمان بالعديد من العلماء والمفكرين من ذوي التخصصات المختلفة المتنوعة، وعلى أيديهم نشأت العلوم والفنون العلمية العديدة المتنوعة التي عجَّت بها ومازالت المكتبة الإسلامية. ولم يقتصر الإبداع الإسلامي في هذه العلوم والفنون على الإيجاد والإنشاء بل تعداه إلى التطوير المستمر، كماً وكيفاً. يستوى في ذلك ما يعرف بالعلوم الشرعية والعلوم الوضعية، وما يعرف بعلوم الدين وبعلوم الدنيا. على تفاوت في الاهتمام، ومن ثم في العطاء العلمي بين علم وعلم، فهناك علوم كملت ونضجت، وهناك أخرى مازالت، وهناك علوم نشأت مبكراً وهناك أخرى نشأت لاحقاً أو متأخراً. كل ذلك طبقاً لسنة الله تعالى في خلق المعارف والعلوم والفنون.

واليوم تحتل دراسة تاريخ العلوم مكانة مهمة في التخصصات العلمية، فما من علم إلا وتجد من بين فروعه العلمية المهمة ما يتعلق بتاريخ هذا العلم.

ولا يشذ عن ذلك ما يعرف اليوم بعلم الاقتصاد. فلم يخل التاريخ الإسلامي عبر امتداده الزماني واتساعه المكاني من وجود علماء ومفكرين أدلوا بدلوهم في هذا الفن، وإن لم يكن تحت هذا المصطلح «الاقتصاد»، ولا ضير في ذلك، لأن أسماء العلوم تتجدد عصراً بعد عصر. والعبرة في ذلك عند العلماء المختصين، بالموضوع والمنهجية والمسائل. وقد قدم في هذا الشأن من علماء المسلمين على امتداد الزمان واتساع وتنوع المكان الكثير. وإن كان ذلك غير مستقل ومنفرد بمؤلف في الكثير الغالب، ومع ذلك فهناك العديد منهم من أفرد

بالتأليف مؤلفات في هذا الفن. متناولاً بعض مسائله، مثل النقود والمالية العامة والأسواق والإنتاج..الخ.

والمطلع في المكتبة الإسلامية لا تخطئ عينه مثل هذه العناوين: الأموال، الخراج، الكسب، أحكام السوق، البركة في السعي والحركة، إصلاح الأموال، الإشارة إلى محاسن التجارة، النقود، إغاثة الأمة، الإرصاد في مسائل الاقتصاد.. الخ. وما يدرينا لعل الأيام المقبلة تكشف لنا عن الكثير من الكنوز العلمية المفتقدة حتى اليوم. ونحن على ثقة كاملة بأن ما بدا لنا حتى اليوم في هذا الفن ما هو إلا قمة جبل الثلج، استناداً إلى أهمية هذا الفن من جهة، وإشارات الفهارس إلى العديد من الكتب غير الموجودة الآن على الساحة من جهة أخرى، يدعم ذلك كله ما ناب العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل قديماً وحديثاً، شرقاً وغرباً من ويلات ونكبات، نال تراثه الفكري منها وبكل أسف الحظ الأكبر.

والباحث المنصف في التراث الفكري الإسلامي في هذا المجال لا يستطيع أن يتنكر أو حتى يغفل ما قدمته شخصية إسلامية عاشت في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي من إسهام بارز يجعله يقف في مقدمة المفكرين، إنه جعفر الدمشقي الذي نعتبر مؤسساً لعلم الاقتصاد، وكذلك لعلم الإدارة.

مع الشيخ أبي الفضل:

من سوء حظنا وحظه أن المعاجم والمدونات التاريخية لم تهتم به الاهتمام اللائق بعظيم جهده في فن الاقتصاد. وإنما هي شذرات معرفية منثورة هنا وهناك. كل ما عرف عنه أنه كان مفكراً تجارياً مارس مهنة التجارة عاش في طرابلس الشام، الواقعة في لبنان اليوم، في القرن السادس الهجري الموافق القرن الثاني عشر الميلادي، حيث ورد في آخر كتابه أنه انتهى منه عام ٥٧٠هـ. وقالت دائرة المعارف الإسلامية إنه عاش في القرنين الخامس والسادس الهجريين[1].

ومما دونه في كتابه، ومما قيل عنه نفهم أنه كان مفكراً واسع الإطلاع على أنواع عديدة من الفنون، قارئاً جيداً للكثير من العلماء والحكماء السابقين، من مسلمين وغير مسلمين. وإذا كانت كنيته أبا الفضل فإن إسمه هو جعفر بن علي الدمشقي. وعلينا أن نلتفت إن هذا المنشأ؛ مكاناً وزماناً عايش الحروب الصليبية، وعايش حروب صلاح الدين مع الفرنجة في بلاد الشام. ومن هنا فيغلب على ظننا أن كتاب الإشارة لأبي الفضل قد تعرف عليه الفرنجة وقد نقلوه معهم إلى بلادهم كما هو الحال مع العديد من المؤلفات العربية.

وعلينا أن ندرك كذلك أننا إذ نعيش زمن الدمشقي فإننا نجد على الطرف الآخر، الطرف الأوربي يعيش ما يعرف بالعصور الوسطي، بما اكتنفته من جهل وأمية وظلام واضمحلال فكري واضح. وأنهم بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي وما قبله بقليل، أخذ حالهم الفكري في التغير الكبير، والسبب الرئيس وراء ذلك هو احتكاكهم بالمسلمين وما نقلوه عنهم من فنون وعلوم ونظم.

١) طبعة كتاب الشعب، المجلد ٩ ص٢٢٢.

وحتى نتحقق من صدق ذلك لننظر في حال الفكر الاقتصادي الأوربي في تلك الحقبة فلا نجد إلا ما يعرف بالفكر الكنسي، وهو فكر قاصر على رجال الكنيسة من جهة، وبالغ الضحالة والتسطح من الناحية العلمية من جهة أخرى.

وعلى الصعيد الفكري الإسلامي في المجال الاقتصادي فإن الدمشقي سبقه العديد من العلماء في تناول بعض المسائل الاقتصادية. لكن المنهجية كانت إلى حد كبير منهجية فقهية أساساً، ثم إن ما سبقه قدم إسهامه غالباً في مسائل اقتصادية محددة. وهذا عكس ما رأيناه لدى الدمشقي، وسنوضح ذلك في الفقرة القادمة.

مع الكتاب وعنوان دراستنا:

الدمشقي لم يعرف له غير هذا الكتاب محل الدراسة، والمسمى «الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديها وغشوش المدلسين فيها» وكل ما يعرف عن هذا الكتاب أن مطبعة المؤيد قد نشرته عام ١٣١٨هـ وأن المستشرقين قد أولعوا بهذا الكتاب، وقام المستشرق الألماني Ritter بترجمته ونشره. وذكره الدكتور قبلان سليم في كتابه «موجز المبادئ الاقتصادية» وقال عن الدمشقي إنه أبرز من عالج الفكرة الاقتصادية من المفكرين المسلمين والعرب، وعنى بالشأن الاقتصادي كشأن قائم بذاته[1].

وفي أوائل حياتي العلمية وقع في يدي هذا الكتاب[2]، ولشد ما كان إعجابي به، ولما كنت بصدد الكتابة في أعلام الاقتصاد الإسلامي فقد حرصت أن يدرج

١) السيد عاشور، دراسة في الفكر الاقتصادي العربي، القاهرة: ١٩٧٣م، ص٥.
٢) الذي حققه البشري الشوربجي، ونشرته مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٧م.

الدمشقي بينهم[1]. وقدمت آنذاك دراسة علمية عن هذا الكتاب، وحيث أنني حالياً أعيش مرحلة متأخرة من العمر فقد رأيت أن أراجع بعض ما قدمته في مراحل حياتي السابقة، وبخاصة المبكرة منها. وكان من ذلك ما كتبته عن الدمشقي. وأسفرت المراجعة عن تأكيد لما سبق، ثم تطوير وتوسيع له، ثم إخراجه في ثوب جديد. وكان وراء ذلك العديد من الاعتبارات، منها أنه كتاب مخصص كله للاقتصاد والإدارة، وأنه لم يقف عند دراسة مسألة أو مسألتين، أو حتى ثلاث أو أربع من المسائل الاقتصادية، كما كان الغالب لدى من سبقه من علماء المسلمين، وإنما يكاد يحيط بأهم الموضوعات والقضايا الاقتصادية على تنوعها وتعددها. ثم إنه مكتوب بلغة اقتصادية ومنهج اقتصادي، عكس ما وجدناه لدي السابقين من غلبة المنهج الفقهي أو المنهج التوجيهي عليهم. بعبارة أخرى كان السابق يغلب عليه ما أصبح يعرف بالمقولات المعيارية. لكننا هنا وربما لأول مرة على الأقل فيما هو تحت أيدينا من كتب التراث نجد المقولات التقريرية أو الإيجابية بارزة، بل لها الغلبة والسيطرة. فوجدنا أفكاراً فنية تتعامل مع العديد من القضايا الاقتصادية. بل أستطيع أن أقول إنه قدم الكثير من القوانين والنظريات ولم يغفل عن السياسات. ووجدنا كذلك شيئاً جديداً مفاده مزج التحليل النظري بالدراسات والأبعاد العملية الواقعية. لقد تمكن بمهارة من جعل التحليل النظري والتأييد الواقعي يتعانقان. ووجدنا كذلك أن هذا الكتاب بما تعرض له من قضايا إدارية رئيسة ومتنوعة ومتعددة وبخاصة ما يتعلق منها بعمليات الشراء والتخزين والرقابة على الجودة والبيع

١) وبالفعل صدر الكتاب الأول من سلسلة أعلام الاقتصاد الإسلامي وكان من بين هؤلاء الأعلام الدمشقي. عام ١٩٨٤م.

والاستيراد والتصدير فإنه لا يعتبر منشئاً فقط لعلم الاقتصاد وإنما هو منشئ كذلك لعلم الإدارة. وإذا كان هناك من سبق الدمشقي في دراسة بعض القضايا الاقتصادية التي تناولها فلم أجد أحداً سبقه في التعرض لهذه القضايا الإدارية فيما أطلعت عليه.

ومن هنا جاءت تسمية الدراسة بهذا الاسم. وإنشاء العلوم له معايير معروفة لدى العلماء المتخصصين، وأعتقد أن الدمشقي بما قدمه في كتابه هذا قد استوفي جل هذه المعايير، مما يجعله جديراً بهذه التسمية. وعموماً فإن القراءة الموضوعية المنصفة للكتاب في ضوء الزمن الذي كتب فيه تؤيد ذلك، وما ستكشف عنه هذه الدراسة يصادق بقوة على هذه المقوله.

وقبل أن نختم هذا التمهيد نحب أن نشير إلى أن الكتاب الوحيد الذي بين أيدينا من كتب التراث والذي يشارك كتاب الدمشقي في هذه المواصفات هو كتاب المقدمة لابن خلدون. لكن يبقى لكتاب الإشارة العنوان الاقتصادي الواضح، وكذلك الموضوع الاقتصادي الوحيد، عكس المقدمة، كما يبقى له السبق التاريخي، فقد ظهر قبل المقدمة بحوالى قرنين. ويبقى للمقدمة التحليل الضافي لبعض الموضوعات الاقتصادية والتي لم يتعرض لها الدمشقي أو تعرض لها بعجالة. وغير مطلوب من كتاب اسمه الإشارة التوسع والتعمق وخاصة في هذا الزمن السحيق.

كما أحب أن أشير إلى بعض ما وراء عنوان الكتاب من مغزى ومضمون. فلعل البعض يتساءل: لم خص الدمشقي التجارة بالذكر في عنوان كتابه؟ والجواب عن ذلك لأن المؤلف كان تاجراً يمارس التجارة، وكأنه بذلك أراد أن

يُنَّظر لما يمارسه عملياً. ثم إن علاقة التجارة بعلوم الاقتصاد والإدارة هي علاقة جد وثيقة، يشهد بذلك ما جرى عليه العرف لردح طويل من الزمن وحتى الآن بتسمية الكلية التي تدرس فيها هذه العلوم بكلية التجارة.

وتنقسم دراستنا هذه إلى قسمين: قسم يتعلق بالفكر الاقتصادي للدمشقي وقسم يتعلق بفكره الإداري.